

قصيدة الغزل عند سعد الله أبي القاسم من الذات إلى الثورة

د. الأحمر الحاج

جامعة سيدي بلعباس

يعد الغزل بابا رئيسيا في الشعر الجزائري قديمه وحديثه ، سواء كان هذا الغزل نبضا إنسانيا أم أسلوبا تقليديا فقد استطاع ان يطبع سمات بارزة حيث إن للعاطفة في الجزائر تجربة فريدة متميزة ، هذه التجربة ضيق نطق الشعر الغزلي و كادت تطمس ملامحة بين الفنون الشعرية الاخرى بل طمسها فعلا في قناع قومي سياسي فرضته المأساة الاستعمارية و جندت له حتى العاطفة الذاتية الغريزة ، وبما ان الجدية عمت حياة الجزائريين و التقاليد الجزائرية القاسية التي كانت تحدد مجال القول بالنسبة للشاعر و كل من حاول الخروج عن هذا المجال ، ومع الثورة ظهر شبان راوا في هذه التجربة بأنها التزمت حصار الشاعر الذي يريد ان تعيش في الجو الحر الفسيح فهدموا السد الذي اقامه المجتمع في طريقهم و فتحوا منفذا لعواطفهم المرهقة ، هؤلاء الشعراء هم الذين طوروا فن الغزل في الشعر الجزائري شكلا و مضمونا و نخص منهم بالذكر " ابو القاسم سعد الله " الذي استطاع ان يجمع بين الحب و الثورة فهو يجسم تجربة ذاتية و يتقمص القضية الوطنية و ينصهر فيها و ليست القضية الوطنية فحسب و لكنها التقاليد المحافظة الخائقة ايضا، تضافرا على الشعر على العاطفة كما وكيفا .1

من بين قصائده قصيدة "ثائر و حب " فبطل هذه القصيدة ثائر ترك حبيبته و التحق بالجبال حيث المعركة و لم تستطيع هذه الاخيرة بضجيجها و صورها ان تمحو شخص المحبوبة بل ان هذه الصور التي تمر امام عينه و هذه الاصوات التي تلامس سمعه كلها تمتزج بحبيبته و هي حاضرة معه في كل حين هذا ما رسم الشاعر في هذه اللوحة قائلا :

أوراس و الدماء و الطرق
وصفحة السماء و الغسق
كأنه وجودي القلق
و الأفق المهموم راعف عنق
قد ضمنت عيونه إلى الفلق
و سال من أطرافه دم التفق
و نجمة من الشمال تحترق
كقلبي الذي يدق
يذكرك العبق
حبيبي 2

وهكذا ظهر الشاعر حاملا نفسا معذبة عاشقة لبطلة استطاعت أن تلهيه عن كل
الأشياء هي الجزائر ونجد هذه الازدواجية لكنها في قصيدة أخرى حيث يطل
أبو القاسم عبد الله لا نفس معذبة ترافقه حبيبته ولا لزيارته.

رفيقتي عند الشفق
أتذكرين أمسنا المجهود
أتذكرينه غثيان
يبصق الدماء
يجر كتلتي حديد
ثقيلتين كالعياء
أتذكرينه عند الشغف
وللضباب حوله جدار
وللحياة حوله قفار
لا فأس عنده و لا مطر
يهدم الجدار ... ينعش القفار

ويدفن الحديد و العياء

لا شيء يا رفيقي³

أنا أمام لوحة يرسمها الشاعر يحاول استحضارها (أتذكرين؟) لكنها لوحة دامية مخيفة جمعت نحتها الحبيبين

لوحة يحرس الشاعر الحفاظ بصورها الدامية حيث كرر السؤال ثلاث مرات

(أتذكرين) حاملة صيغا خبرية . يتجلى في هذا المشهد الشعري صوتين

1. صوت الشاعر السائل وقد انهار

2. صوت الشاعر المجيب القلق

ورد الاستفهام (أتذكرين؟) مسبق بالهمزة وهي للتصديق و في هذا الحال يمتنع ذكر للمسؤول عنه وهذا الاستفهام وهو الذي صنع الغطاء النسيجي للنص فالتبدل الحاصل ر في الأسلوب من أخبار رفيقتي عند شفق) إلى إنشاء (أتذكرين) يلقي عليه جمالا و تنوعا يترك أثره في المتلقي. فتتحرك النفس ونشير الانفعال فتكرر الكلمة يحقق ايقاعا يساير المعنى و يمكن ان يعبر عن الزمن و امتداداته او قصره و الحركة بأشكالها المختلفة .

هذه الأسئلة التي توحى بالحيرة

ليدلل ذلك الإحساس الغريب (الغثيان الدماء - العياء - القفار - المأتم - الرهيب -البؤس.

لكن هذه الصورة لا تدوم ، لتأتي اللوحة التفاضلية الأخيرة التي تحمل الأمل الذي يعيشه مع حبيبته منتظرا الحرية و العودة إلى الوطن

فالحب عند سعد الله بقدر ما هو عاطفة ذاتية فهو عاطفة إنسانية عامة،

فحب الثوار لبعضهم و حبهم للوطن هو الذي جعلهم يقفون رجلا واحدا يترصدون العدو بين الصخور و الأشجار بعزيمة صلبة، كل ذلك من أجل الغد

المنشود بحيث يبدأ الحديث عن الأوراس و الثورة، فإذا ذكر الأوراس تبادر في
الذهن معنى البطولة و الأبطال بالجهد و النضال، فمنه انطلق الصوت الذي
زلزل الحياة الراكدة، هذه الحياة التي ران عليها الثلج البارد و السكون القاتل،
و هذا الصوت نفخ الحياة في أعماق الإنسان و الشعب فاندفعت أمواج الحرية
إلى القمة بعد أن صبت ربح الثورة من الأوراس فهي رمز للقيم النبيلة، كل ذلك
من أجل الغد المنشود فيقول:

"والأبيض" الصخاب و العباب

و زورق كأنه شهاب

ينساب فوق سطحه انسياب

محمل بمؤن الثوار

تدفعه إلى الرصيف نار

من حينا وعزيمة الاحرار

و نحن بالمرصاد ها هنا

بين الصخور و الشجر

و هذه الجموح زاحفة

بعزيمة كالعاصفة

خفاقة البنود

على الغد المنشود 4

و إذا كان الحب هو البذرة الأولى التي يزرعها الشاعر في حقل عواطفه،
حتى يعجز عباب الحياة هذا الحب الذي لا وجود لأمة و لا لشعب و لا
لإنسانية بدونه فيما ترى كيف كان الشاعر قبل أن يخفق قلبه حبا أن قصيدة
"صورة" تقدم الجواب الحاسم على ذلك:5

يا صورتي

قد كنت شيئا تافها

له فؤاد من تراب
يسقيه بالانهار و الامطار
ولكنه لم ينبت الاعشاب
ولم يفتح وردة الحب
أما و قد انفتح قلب الشاعر على الحب، فقد أصبحت حياته شيئا آخر بل لقد
أصبح كما يقول شيئا واضح الهدف6:

يا صورتي
تزخرف التراب و انتشى الفؤاد
وزفرت بالحب جنتي
وصرت واضح الهدف7
و في هذه القصيدة يبدأ الصراع بين الشاعر و التقاليد التي قابلته بالتحدي
والحرمان من جهتها فلم تبق له سوى الصورة فيقول8
لها عينان.....منبع غرام
أغوص فيهما إلى الأعماق
لكنني ضمان دائما

و تمر السنين و تطول سنوات الحرب و تصبح الثورة موضوعا تتداوله
الألسنة و قصيدته "الحزن" التي كتبها الشاعر سنة 1959 يتحدث حبيبته عن
الثورة و ما يتصل بها مؤكدا لها أنه لم يعد في إمكان فرنسا القضاء على ما بنته
الثورة من تاريخ اندلاعها، تلك هي رؤية الشاعر المؤمن بنجاح الكفاح فيقول:
وحيدتي

لن يسقط الخريف كل زهرة.....من دربها الطويل
لن تخنق الرياح كل نغمة.....سكراية يحبها الأصيل

هناك في بستان الحب ناي

ألحانه خضراء ما تزال

تسامر العشاق و القمر

و لذلك يحاول الشاعر تصوير المجهول وقد تكرر في غير مرة ، لا شك ان في ذلك ترجمة لذلك الصراع الداخلي ، فكلما حاول الخروج من هذا النفق ليصير النور تعيده تلك الطاقة الخفية المكبوتة الى ذلك الصراع..

وتكتنف نفس الشاعر سحابة سوداوية من الحزن كما يبدو صادر عن الأعمال الإجرامية التي تغتال القلوب التواقه إلى الحرية فيقول:

الحزن يا وحيدتي

يمص الشوق في العيون

يغتال رعشة القلوب

الحزن يا وحيدتي ظلام

تجتازه بلا شموع9

عيوننا لم تألف الظلام

إلا أن الشاعر لم يستسلم بل وقف موقف التحدي، شاقا طريقه و هو كله إيماناً و أمل بطلوع النهار و انجلاء الظلام فيقول:

لكننا نجتازه بلا تعب

لأن في الأعصاب نار

من حيننا.....

تضيئنا.... تمدنا بطاقة النهار.....

الحزن رحلة هوجاء

مخومة.....لكنها شهية السرى

لأن بعدها الربيع و الصباح

و النادي و الغناء و القдах

و الفرحة نشوانة اللقاء10

كما أن هناك نوعا من الغزل من نوع خاص يسمى بالغزل السياسي و لهذا الغزل مبررات واقعية و دوافع من أحداث فالمواطن كان ممزقا بين تعلقه بمبادئ الثورة الفرنسية التي كان لها على ذلك العهد صدى كبير في نفوس الجزائريين يبعث فيهم الأمل في التمتع ببعض مكاسب الثورة الفرنسية من حرية و إحاء ومساواة و كان يغذي هذا الأمل مشاركة الجزائر في ضريبة الدم الذي سفكته الحرب العالمية الأولى و كان لانتصارات فرنسا فيها فضل كبير تدين به لأبناء الشمال الإفريقي.

فالحب عند سعد الله صلاة صارعة في محراب الجمال و خلوة انفرادية خالصة في أعماق صورة الحبيب، و عنده بلا نهاية، هي هناك ورق باهت و هي هنا رؤى متموجة الموقف و هو هنا صلاة و ابتهاج.

وحدي هنا

في صورة قلبي لها صندوق سر

مغلقا، محجبا، إلا هو

في صورة كلوح عبقرى

كطلعة النبي

مرسومة دائما اتجاه ناظري

أعماقها رحابة الوجود

ألوانها منى مزخرفة

لها عينان منبعا غرام

أغوص فيهما إلى الأعماق11

حيث أن قصائد سعد الله مليئة بالبراءة الأصلية من بصمات الثورة في أسلوبها ومضمونها فهي خالصة للحب مستمدة من رفته و عذوبته، مستلهمة من براءته وطفولته لم يمسسها سوء من الألفاظ الصاخبة أو المشاعر الشبيهة بالشظايا

المتطيرة بالرغم من أن هذه القصائد ألفت في زمن الثورة تحت اسم "ثائر وحب"، فكان الشاعر عز عليه أن تفوته الإزدواجية الموضوعية في القصائد، فاستدركها في العنوان مما برهن على أن ظل الثورة لا ينفك ملاحقا النص العاطفي في شعر سعد الله أسلوبا و مضمونا حيث يضع حدودا موضوعية فاصلة للتجربة الإنسانية و أوجهها المختلفة، يقول في مقدمة ديوانه: "وقمة الشعور الإنساني لها أسماء مختلفة في عالم الشعر، فقد تكون لوعة حب، أو شعلة ثورة، أو اختناق يأس...."12

حيث أن العاطفة تلمست منطلقا جديدا على ريشة سعد الله و لم تتخط به الصور الغزلية الرتيبة المتمخضة من التوقع حول التراث فحسب، و إنما تتعدى ذلك أن الشعر العاطفي في الشعر الجزائري بوجوده و عدمه، بتقليده و أصالته، بصراحته و تستره، بعفته و تمرده، بكل ملابسته و طرائق تعبيره، ما هو إلا صورة عن البيئة التي احتضنته أو أفلت منها باعتبار أن الجزائري انساق في تيار الثورة حتى في حبه، فصار لا ينظر إلى الغزل ببصيرة القرون العاربة كأدب وصفي يرسم المظاهر الخارجية فإنه أدب وجداني يعبر عن الأحاسيس في مجالات الحب وهو استحضار سعيد أو شقي ترك العين دمة أو في القلب لهفة .

و قبل أن نطوي هذه الصفحة عن الغزل عند سعد الله نعود و نقول أن الحب عنده يغلب عليه الطابع الرومانسي الثوري المستوحى من الثورة التحريرية، اعتمد فيه الشاعر على الرمز عموما لإيصال أفكاره، كما اتضح لنا في قصائده حيث أن الدارس لا يستطيع أن يدرك ما يريده الشاعر إذا لم يكن عارفا لطبيعة المجتمع الجزائري و الظروف المحيطة بالقصيدة حيث أن المتتبع لقصائد الغزل الذي أوردناه في هذا المبحث يلاحظ ربط بين مشاعره الذاتية و القضية الوطنية و هي سمة بارزة في قصائده الغزلية الثورية مع أفراد قصائد للغزل الخالص كما تتميز بعفة العاطفة.

(سنلتقي في ضمة انتصار) (الطفلات من جديد) هذا التفاؤل يخفف ذلك الشعور بالغربة و الوحدة ، انه العشق الذي يحمله لان يعيش في حالات انتظار

ورفيقته ، فالشاعر يحاول ان يذوق طعم الحرية برفقة حبيبته و رفيقة. هذا الشعر الذي نرى فيه تلك (البراءة الاصلية من بصمات الثورة في اسلوبها ومضمونها ، فهي خالصة للحب متفانية فيه مستمدة من رفته و عذريته مستلهمة من براءته وطفولته) 13

ان وراء هذه التجربة محاولة للشاعر لفض حدود الأشياء، حتى و إلى كانت هذه التجربة صادرة عن ذات ،فان وراء ذلك إعلان صريح عن موقفه من الحياة و من كل ما يحيط بهاو كان الله ير بيته ي سل في. دمه مع الذرة الإنسانية ذرة من مادة الكواكب هي سر عشقه14 وجادبيته

رفيقتي عند الشفق وصلتنا إلى القمر
انا وانت درنا تراب وضمنا الاعشاب و الزهر
ذراهما النسيم في السحر و غنتا للحب و القمر
فنامتا على عناق وعاشتا طفلين يمرحان
أنا و أنت و الشفق15

فهي قصائد ذات روح هادئة تحس فيها البراءة الأصلية من بصمات الثورة في أسلوبها و مضمونها فهي خالصة للحب متفانية فيه مستمدة من رفته وعذوبته، مستلهمة من براءته و طفولته لم يمسسها سوء من الألفاظ الصاخبة والمشاعر الشبيهة بالشظايا المتطايرة

ولعل تجربة العشق هنا سلطت الضوء على نفسه الشاعر لكونها تنطلق الذات كالموضوع لتعزي خراجها ، و تنوع من التعويض عن الخراب الذي عاشه في أقاصي الغربة واليتم ، وتبقى الأرض (الوطن) هي الحبيبة تنشد مواويلها الحزينة من جراء ذلك الخراب

ان الشعر العظيم يحتاج إلى تجربة عميقة و تفاعل مع الحياة باصالة وصدق و لا شك ان اصواري الرصاص التي اندلعت ، ايقضت الشاعر و فجرت طاقاته الإبداعية فجاء شعرا عظيما، يتغنى الحرية، تاركا اثره في اعماق المتلقي

1. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري لحديث ، دار الآداب ، بيروت 1966 ص 72.
2. سعد الله أبو القاسم الزمن الأخضر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 195.
3. أبو القاسم سعد الله الزمن الانظر ص 317.
4. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر ص 196-197.
5. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر ص 334
6. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر ص 334
7. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر ص 334
8. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر ص 335.
9. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر 335.
10. أبو القاسم سعد الله الزمن الاخضر 336.
11. أبو القاسم سعد الله، ثائر و حب ص 106.
12. أبو القاسم سعد الله ثائر وحب المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ص 108.
13. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989، ص 76.
14. الرافعي صادق، رسائل الأحزان ، دار الهلال مصر 1924 ص 192.
15. أبو القاسم سعد الله ، الزمن الأخضر ص 317.